الفصل الحادى والثلاثون

الصحوة الإسلامية المعاصرة

أجل .. إن الصحوة الإسلامية المعاصرة هى السبيل الوحيد للخروج بالمسلمين مما هم فيه الآن . ولكى يتحقق هذا الأمل على يد الصحوة فلا بد من إحداث تغييرات فيها تجعلها جديرة حقاً بإنقاذ المسلمين ، وتمكين الإسلام من تأدية دوره فى الحياة . ودفع ما أثاره خصومه من شبهات حوله .

● التصالح مع الحكومات :

من أوليات التغييرات التى يجب إحداثها فى منهج الصحوة هى التصالح مع الحكومات الواقع نشاط الصحوة فى نطاقها ؛ ذلك لأن استمرار العداء بين الصحوة والحكومات ليس من صالح الصحوة أبداً . فهى دائماً فى حاجة إلى كسب مواقع جديدة فى مشاعر الجمهور ، وإلى تزايد الإقناع بما تدعو إليه ، وإلى حرية فى ممارسة نشاطها الهادف . والعداء بينها وبين الحكومات يعرِّضها للمخاطر كما يحدث الآن :

من تبديد طاقاتها ، وتدمير قدراتها كلما نمت وتجمعت . والتاريخ القريب ، بل والواقع المعاصر خير شاهد على ذلك ، ولا داعى للشرح والإطناب . قد يقول قائل : إن الحكومات هى التى تأبى المصالحة . وهذا صحيح ، ولكن التغلب على هذه العقبة ميسور . فلتكن المصالحة إذاً من جانب واحد ، وأعنى به الصحوة نفسها . وذلك بتركها بعض الممارسات المثيرة التى تُشعل النار عليها ، وتوغر الصدور نحوها . إن كثيراً من عناصر الصحوة يرفضون العمل والتعاون

مع الحكومة . وهذا خطأ محض يجب أن نُقلع عنه . والخاسر فيه هو الصحوة نفسها . لأنها تحكم على نفسها بالحرمان من العمل فى ميادين ، من الخير أن نستثمرها فى الدعوة الصامتة والناطقة ، نحو الهدف الأسمى الذى نبتغيه ، مهما كان موقع العمل الذى سيشغله الأعضاء صغيراً أو كبيراً ، قيادياً أو مقوداً .. ولنضرب لذلك أمثلة :

مدرس اللغة العربية يمكن أن يستغل مادتى التعبير والإملاء فى المدارس الأوّلية فى موضوعات هادئة تخدم الدعوة . وكذلك نموذج تحضير الدروس فى القواعد ، هو نموذج يصوغه المدرس متضمناً القواعد المراد درسها . ويقوم بكتابته على « السبورة » أمام التلاميذ ، هذا النموذج يمكن توظيفه بطريق غير مباشر لخدمة الدعوة كذلك ، وكذلك مدرسو الطبيعة ، والكيمياء ، والتاريخ ، بل والرياضيات ... كل هذه النشاطات فيها مجال لخدمة الدعوة . فإذا كان العمل الذى يشغله العضو هو إدارة المدرسة أو المعهد ، فالفرصة أمامه واسعة ، والإمكانات هائلة ، ليشيع الروح والسلوك الإسلامى فى دائرة عمله من النظام والنظافة والتعاون وجدية التحصيل . وهكذا فإنك تجد مجالاً للعمل الرزين الهادف مهما كان العمل الذى تؤديه ، والوظيفة التى تشغلها ، وبخاصة فى وسائل الإعلام والصحافة ، والجامعات والمستشفيات . إن الداعية البصير الفاقه يحمل معه آداب الدعوة فى كل مكان بخُلُقه وسلوكه . حتى ولو كان مديراً لجمعية استهلاكية فإنه يستطيع أن يشيع فيها الروح الإسلامى فيقضى على الفساد والطوابير الخلفية ، وصرف المواد الغذائية لغير مستحقيها ، ويبث فيها النظام والهدوء وجدية العمل ، ويكون نموذجاً طيباً يشيع ذكره على كل لسان . هذه مجالات يجب على الصحوة أن يكون لها وجود فيها ، ومعاداة الحكومة يحرم الصحوة من التغلغل فى صميم المجتمع . وعلينا أن نستثمر كل الإمكانات بشرط أن تكون متاحة ، أما إذا وضعنا فى حسابنا الانتقال عن طريق الطفرة فقد يُعرِّضنا هذا لما لا تُحمد عقباه . وهنا يحسن أن نستأنس بمثال من التاريخ النبوى البعيد :

يوسف عليه السلام وهو رسول لم يرفض العمل فى وزارة عزيز مصر ، بل ظل يجمع بين عمل الرسالة وأمانة خزائن عزيز مصر . وبفضل عمله فى الوزارة استطاع أن يجمع شمله بأبيه وأمه وإخوته فى مصر ، وقبوله للعمل فى الوزارة لم يجعله يشعر بالولاء يوماً ما لعقائد المصريين وديانتهم القديمة .

وهذه المصالحة التى ندعو إليها من طرف واحد لا تكون إلا إذا أغمض الإسلاميون أعينهم عن بعض السلبيات ، التى لم يحن الوقت للقضاء عليها . علينا أن نعمل فيما هو متاح حتى نصل بهدوء وحكمة إلى العمل فى غير ما هو متاح . ولنذكر من تاريخنا الإسلامى ، ومن سيرة المصطفى صلى اللّه عليه وسلم كيف وافق مشركى قريش فى صلح الحديبية أن يُمحَى من عقد الصلح كونه « رسول اللّه » لِمَا كان يرى فى الصلح نفسه من نُصرة للدعوة ، وتأمين للدعاة .

وكيف طاف حول الكعبة فى عُمرة القضاء وفوقها ثلاثمائة وستون صنماً يُعبد من دون اللّه ، ولم يتعرض لها بسوء وهى أبغض شئ إلي نفسه . ثم لما حان الوقت لتطهيرها (الكعبة) من تلك الأصنام لم يتردد لحظة فى تحطيمها وإخراجها من بيت اللّه الحرام .

وعمر بن عبد العزيز لما آل إليه الأمر ، وأخذ يُصلح ما أفسده قومه بنو أمية بالتدريج ، اعترض عليه ابنه ودعاه إلى إزالة الفساد مرة واحدة بما فيه من طموح الشباب واستعداده أن يلقى مع أبيه الموت فى سبيل القضاء على الفساد ، ولكن أباه الرجل الذى صقلته التجارب رد عليه قائلاً : إن اللّه ذَمَّ الخمر فى ثلاث آيات ، وحرَّمها فى الآية الرابعة ؟ يريد أن يقول لابنه : إن حمل الناس على الحق دفعة واحدة مضر بهم وبالحق نفسه . فالخير كل الخير فى التريث الحكمة .

إن التصالح مع الحكومة ، ولو من طرف واحد - كما وضحنا - والصبر على بعض المكاره حتى يأتى وقت زوالها أو إزالتها يحميان الصحوة من الانتكاسات ،

ويهيئات المناخ دائماً لنمو مستمر ، وكسب مواقع جديدة هى فى أمَسِّ الحاجة إليها .

* *

● وحدة الصف :

والصحوة فى كل بلد إسلامى - وبخاصة مصر - فى أمَسِّ الحاجة إلى وحدة الصف ، وجمع الشمل . فالمفروض أن الصحوة لا هَمَّ لها إلا الدعوة إلى الإسلام ، وإعادته إلى الواقع بعد طول غُربة ، وبعد اتساع فجوة ، والإسلام واحد ، والحق الذى يقوم عليه الإسلام حق واحد . فعلام يكون التوزع والتفرق بين الدعاة إليه؟! وهل نَسِىَ الإسلاميون أن الذى أضاع المسلمين الآن هو التفرق ، والتفرق مدعاة لنشوب الخلاف والنزاع ، والخلاف والنزاع هما آفتا كل اجتماع ، ومقوِّضاً كل قوة . وإذا كان الإسلاميون الآن يأخذون على قادة الدول الإسلامية ورؤسائها أنهم توزعوا أشلاء أمام عدوهم فكانت الكارثة ، فلماذا هم - أعنى الإسلاميين - يسيرون نفس السيرة التى يعيبونها على غيرهم ؟! إن الإسلاميين يجب أن يكونوا أعرف الناس بمقاصد الإسلام وقيمه ، وأمَسِّ الناس رحماً بالقرآن والسُنَّة والعمل بهما . والقرآن يقول : ﴿ وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (١) والريح : القوة والعزة .

ويقول : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ ... ﴾ (٢) وحبل الله هو الإسلام شرعته ودينه .

ويقول : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ ... ﴾ (٣) .

أليس حرياً بالإسلاميين أن يلتزموا بهذه التوجيهات ؟ وألا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم . فالجماعة هى أقصر طريق لبلوغ الآمال :

---

(١) الأنفال : ٤٦ (٢) آل عمران : ١٠٣ (٣) آل عمران : ١٠٥

والجماعـــات ثنايا المرتقـــى للمعالـــى ، وجسور العابرين

فعلام التفرق والتمزق إذن ، حتى أصبح واقع الصحوة كما قال الشاعر :

وتفرّقـــوا شيعاً فكـــل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر ؟!

التفرق والتنازع معناه أننا ندعو لأنفسنا لا إلى اللّه . وهذا من أخطر العيوب التى تُنسب للإسلاميين الآن ، ومن أوسع المنافذ التى يوجِّهُ الطعن من خلالها إليهم من خصومهم . فلمن ندعو إذن ؟ إن كنا ندعو إلى اللّه فلنوحد الصف ، ولا يبالى أحدنا أياً كان موقعه فى موكب الدعوة : فى الخلف أم فى المقدمة ، فى الميسرة أم الميمنة . إن توحيد الصحوة صفوفها ، والتجرد تماماً من حب الإمارة لهو أكبر دليل على إخلاصها وصدقها . والعكس صحيح ؟!

* *

● ترتيب الأولويات :

النظام والتخطيط الحكيم هو شرط النجاح الأول فى كل عمل بعد إخلاص النِّية للّه ، والمهمة التى تحملها الصحوة على كاهلها الآن من أصعب المهام التى تنهض بها جماعة . ومما يزيد تلك المهمة صعوبة ضراوة التحديات التى تقف فى سبيلها ، وضخامة حجم المشكلات التى نجمت عن الهجوم الشرس الذى شنَّته أوروبا على الإسلام عسكرياً ، واقتصادياً ، وفكرياً ، وثقافياً ، بل و « عقائدياً » مما جعل ميدان العمل أمام الصحوة متعدد الجبهات ، كثير المضايق متعرج السُبل . وهذا يقتضى وضع نظام فى وضح النهار تُرتَّب فيه الأولويات ترتيباً محكماً : بِمَ نبدأ ؟ ثم بِمَ نُثَنِّى ؟ ثم بِمَ ننتهى ؟ وهذه المهمة لا يستطيع شباب الدعوة أن ينهضوا بها وحدهم ، لأن تجاربهم ما تزال هشَّة . فلا مناص إذن من أن يُشركوا معهم مَن صقلتهم التجارب ، وعركتهم الأحداث ، وحنكتهم الوقائع . فإذا وُفِّقت الصحوة لوضع هذا النظام ، والتزمت به فى التطبيق بالحكمة والموعظة الحسنة ، ورحابة الصدر كان الأمل فى الوصول إلى الأهداف كبيراً ، والطريق إلى بلوغه قصيراً . أما الارتجال والعشوائية فلن يحققا نجاحاً ، ولن

يحافظا عليه إن حدث . ومن سمات النظام المقترح عدم الاهتمام بالأمور الصغيرة ، وعدم التصدى بعنف لأخطاء العوام ، ولنا فى منهج الدعوة أسوة حسنة ، فقد بدأ فى مكة المكرَّمة قبل الهجرة بما يشبه القول - الآن - بعمليات : التخلية من العقائد والسلوكيات الباطلة مع إحلال عقيدة التوحيد والبعث محلها . وفى المدينة - بعد الهجرة - اتجه إلى التشريع ووضع الأسس لتنظيم الحياة العامة والخاصة ورسم سياسة الدولة سلماً وحرباً ، والتحديات التى كانت تواجهها الدعوة فى العصر الأول ، ليست بأعقد ولا أعتى من التحديات التى تواجهها الدعوة الآن ، فما أحرانا أن نترسم منهج الرعيل الأول فى البناء والإصلاح ؟

لو كانت الدعوة أو الصحوة المعاصرة تمارس عملها من مواقع المسئولية المباشرة لكان الوصول إلى الهدف الأمثل جد قريب ، ولكن وجودها الآن خارج مواقع المسئولية يملى عليها أن تتزرع بالصبر والحكمة وسعة الأفق . ذلك أبقى ، وأجدى ، وأمثل .

* *

● القدوة الحسنة :

والدعوة الآن فى أمَسِّ الحاجة لأن يعطى كل عضو فيها من نفسه المثل الأعلى لغيره ، وأن يكون هو القدوة الحسنة فى قوله وفى فعله ، وفى سلوكه . فالميادين التى يجب أن تغزوها الدعوة هى القلوب والمشاعر والأحاسيس ، وسلاح غزو القلوب هو العمل الطيب ، والقول الحسن ، هذا هو السلاح المطلوب ، بل المتعين استعماله ، فلنترك الجفاء والغلظة ، ونركن إلى لين الجانب وتوطئة الأكناف ، لننظر إلى كل الناس على أنهم أصدقاء أحماء لنا .

وليسعهم منا رحابة الصدور ، وبسط الأكف ، ويوم تنجح الدعوة فى غزو القلوب ، واستمالة النفوس ، فإن كل صعب سيزول ... وكل بعيد سيدنو . وهذا هو السر فى أن صاحب الدعوة تجمعت حوله كوكبة من البَشر عرباً وعجماً، رجالاً ونساءً ، وشيوخاً وشباباً ، أحراراً وعبيداً ، لا لمال كان يبذله لهم ، فقد

كان فيهم أغنياء القوم ، ولا لخوف من سطوة عليهم ، فقد كان فيهم ذوو العشيرة والحَسَب . ولكن لأنه كان كما وصفه ربه : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١) هذا هو أول المسلمين ، وخاتم المرسلين ، والاقتداء به لمن يعمل فى حقل الدعوة واجب : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴾ (٢) .

* *

● عدم تعجل النتائج :

ومن السمات التى يجب أن تتحلى بها الدعوة المعاصرة : بذل الطاقة المتاحة فى تبصير الناس ، ثم عدم تعجل النتائج . فالله الرحيم الرحمن كتب علينا العمل ، ولم يكتب علينا إنجاح المقاصد أبداً . بل ذلك له وحده . والدعاة لا يُلامون على فشل المسعى ، وإنما يُلامون على القصور فى العمل . ومَنْ أخلص نيّته لله ، وبذل الطاقة المتاحة له فى الدعوة إلى سبيله . ثم تخلّف مقصده فإن أجره عند الله مثل أجر مَن عمل عمله وتحقق مقصوده ؛ لأن إنجاح المقاصد لا يدخل فى نطاق التكليف . وقد أصاب الشاعر لُبَّ الحقيقة حين قال :

علـــىَّ أن أسعـــى وليس علىَّ إدراك النجاح

بل إن تفويض الأمر لله ، والرضا بما قدَّر ، وعدم التحسر على تخلف النجاح بعد بذل الطاقة ، هو الأدب الإسلامى الذى يجب أن يتحلى به الدعاة وغير الدعاة من العاملين .

* *

(١) آل عمران : ١٥٩ (٢) الأحزاب : ٢١

● الثقة فى اللّه :

وإلى جانب ما تقدم فإن الدعاة فى احتياج شديد إلى دعامة أخرى : هى الثقة فى اللّه الذى بيده مقاليد الأمور . والثقة فى اللّه تمنح الدعاة قوة وثباتاً ، وتعينهم على تخطى الصعاب واجتياز العقبات . وتحول بينهم وبين اليأس والقنوط فلا يُفقدهم فشل منوا به ، ولا يستبد بهم خوف . فصاحب الدعوة صلى اللّه عليه وسلم حين عرض نفسه على القبائل كلها ، فلم يستجب له إلا القليل ، ولقى منهم عنتاً وغلظة ، همَّ أن يفتح آفاقاً جديدة للدعوة ، فذهب إلى ثقيف يدعوهم إلى الإسلام ولكنهم أعرضوا عنه ، واستخفوا به ، وسلّطوا عليه ولدانهم وغلمانهم يطاردونه ، ويقذفونه بالحجارة ، حتى دمت قدماه الطاهرتان . ثم لجأ إلى ظل شجرة ، وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ثم اتجه إلى خالقه ومولاه يشكو إليه ما حلَّ به من شراذم الناس ، وهو أكرم مخلوق عند اللّه وطئت قدماه الأرض . جلس صلى اللّه عليه وسلم تحت ظل الشجرة وهو يحمل فى صدره متاعب ومشاق أكثر من عشر سنين فى سبيل اللّه ، وها هو ذا يستذكر شريط الذكريات المرة ، والتجارب القاسية ولكن كل ذلك يهون إذا وثق من شئ واحد . ألاَّ يكون ما حلَّ به من شقاء ، لقصور منه فى مجال الدعوة ، استحق به غضباً من اللّه (؟) ثم يقول فى نهاية مناجاة حارة ناجى بها ربه : « اللّهم إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى » وكانت هذه العزيمة مفتاحاً لكل نصر وتأييد . أعقبها حادث الإسراء والمعراج :

الإسراء إلى المسجد الأقصى . والمعراج إلى السموات العلى ، وكأن اللّه يقول له : إن ضاقت عليك أم القرى مكة وما حولها فإنَّا فتحنا أمامك أبواب السموات ، وما فتحناها لأحدٍ من قبلك . فهذا فرج أعقب ضيقاً . ويُسْر أعقب عُسراً ، وعطف أعقب شدة ، وأمل أعقب يأساً :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ﴾ (١) .

إن الثقة فى اللّه . وحُسن الاعتماد عليه ، هو الذى أضاء الأفق أمام صاحب الدعوة ، وفتح له مغاليق الآمال فاستحق من ربه تأييداً وظفراً .

وكم من شدة قد تعرَّض لها . وقسوة قد تأجج سعيرها فى وجهه الكريم ، فانتشلته الثقة فى اللّه ، وزادته عزماً فوق عزم :

أفلا نذكر حين مشت قريش إلى عمه أبى طالب ، وكانوا قد ضاقوا بالدعوة وصاحبها فى وقت كان فيه عمه - وهو على دين قومه - سنداً وكفيلاً له ، وألّحت قريش على أبى طالب أن يكف عنهم وعن أصنامهم ابن أخيه - صلى اللّه عليه وسلم - فمال أبو طالب إلى رجاء قريش ، وقال لصاحب الدعوة : يابن أخى ، هوِّنْ علىَّ وعلى نفسك ؟ ولا تُحَمِّلنى من الأمر ما لا أطيق ؟ لقد تخلى « العم » عن « ابن الأخ » أو همَّ أن يتخلى . فماذا كان وقع هذا الموقف المؤلم عند صاحب الدعوة ؟! لقد واجهه بكل شجاعة وإقدام ؛ لأن الثقة فى اللّه قد أملت عليه السلوك المناسب لمثل هذه الأزمات الجسام :

« واللّه يا عماه : لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، وخزائن الأرض طوع يدى ، ما تركتُ هذا الأمر حتى يُظهره اللّه أو أهلك دونه » ؟!

لقد تحمَّل صاحب الدعوة من المشاق ما لم يتحمله إلا أولوا العزم من الرسل ، وكان كلما ضاقت الأرض دونه وجد الأمل فى الثقة باللّه . إن لديه منهجاً للدعوة هو مُطالَب بتبليغه . وليس عليه إحداث الهداية فى قلوب الناس ، ولا إعراض الناس عن الدعوة يسوغ له ترك القيام بأعبائها :

---

(١) الشرح : ١ - ٦

﴿ وَقُلِ الحَقُّ من رَّبِّكُمْ ، فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ... ﴾ (١) .

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ ﴾ (٢) .

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (٤) .

* *

● إحياء فريضة الجهاد :

الصحوة الإسلامية المعاصرة ، هى الأمل الوحيد - حتى الآن - فى الانتصار للإسلام ، وتطهير ساحته مما ألحقته به أوروبا فى مواجهتها الشرسة له على مدى المائتى سنة الماضية . وهى - أعنى الصحوة - مطلوب منها عمل متواصل دءوب لتعيد للإسلام صفاءه ونقاءه وحيويته ، وترفأ ما رَثَّ وبلى من علاقات المسلمين به ، وتحيى ما « مُوِّتَ » من مبادئ الإسلام . وفى مقدمة ما ينبغى إحياؤه فريضة الجهاد ؛ لأن الجهاد كاد يمحى الآن من قاموس العمل ، حيث لجأت قيادات الدول الإسلامية إلى الطرق الديبلوماسية فى حل النزاعات بينها وبين مغتصبى حقوقها . وهذا المسلك لو استطاع - فعلاً - أن يعيد للأمة حقوقها المسلوبة فإن الإسلام لا يرفضه ، بل يضفى عليه أولوية لا يضفيها على الحرب . بَيْدَ أن الواقع قد أسفر عن عدم جدواه ، وهو وإن أفاد فى نزاعات صغيرة فلن يفيد فى أصول النزاعات بين المسلمين وخصومهم . ولنضرب لذلك مثلين قريبى العهد بالحدوث : أحدهما مسألة هجرة اليهود الروس إلى الضفة الغربية ، ومقدارهم كما هو معلن نصف مليون يهودى ؟! ماذا فعلت الديبلوماسية العربية فى هذا المجال ؟! هل استطاعت أن تُقف ذلك المد اليهودى يا تُرى ؟! كلا .

---

(١) الكهف : ٢٩ (٢) الرعد : ٤٠

(٣) يونس : ٩٩ (٤) القصص : ٥٦

فى اليوم الذى كتبت فيه خاتمة هذه الدراسة قرأت فى صحيفة الأهرام الصادرة بتاريخ الأربعاء ٢٩ مارس ١٩٩٠ أن الزعيم السوفييتى « جورباتشوف » أفصح للرئيس « حسنى مبارك » بأن الدولة - الاتحاد السوفييتى - بصدد إصدار قانون يجيز للمهاجر العودة إلى وطنه ؟!

والقصد من هذا « الخبر » أن يخفف جورباتشوف من أثر الصدمة التى أصيب بها القادة العرب من ظاهرة تلك الهجرة من روسيا إلى فلسطين ؟!

وهذا - فيما أرى - ضحك على الذقون - كما يقول المثل : لأن اليهودى حين يصل إلى المستوطنات الإسرائيلية فإن أمره سيكون بيد إسرائيل وحدها . وفى استطاعتها منع أى يهودى من الخروج إلى أى بقعة فى الأرض . إذن فصدور القانون الذى أشار إليه « جورباتشوف » إنما هو « حبر على ورق » ولو كانت روسيا مخلصة لمنعت الهجرة أصلاً . ولكن قادة المعسكرات المعادية للإسلام ما يزالون يتخذون المواقف « الثنائية » فى سياستهم مع العرب والمسلمين : طرف حقيقى فعلى من الثنائية مع « العدو » ، وآخر وهمى هزيل مع العرب والمسلمين ؟!

* *

● القدس عاصمة لإسرائيل ؟!

ولنترك موضوع الهجرة اليهودية إلى موضوع آخر أشد خطراً وأسوأ عاقبة : هو اتخاذ إسرائيل القدس عاصمة لها بدلاً من « تل أبيب » هذا الموضوع بذلت فيه الديبلوماسية العربية الإسلامية جهوداً مضنية ولم تحقق فيه أى تقدم . وفجأة يتخذ « الكونجرس » الأمريكى قراراً بتأييد إسرائيل فى هذا « الحق » وأمريكا صديقة تلقيدية للدول العربية مع تفاوت درجة تلك الصداقة من دولة إلى أخرى . فما الذى أعدته هذه الصديقة لتواجه أصدقاءها بما لا يؤثر على علاقات تلك الصداقة يا ترى ؟

إنها أعدت « الثنائية » كذلك ، وتتمثل هذه الثنائية بأن تأييد إسرائيل فى جعل القدس عاصمة لها هو رأى الكونجرس ، أما الحكومة أو الإدارة الأمريكية فإنها تعارض أن تتخذ إسرائيل القدس عاصمة لها ؟! فهمتهم يا سادة يا كرام ؟!

وكما كان الطرف الحقيقى الفعلى فى « الثنائية » الروسية مع إسرائيل فى موضوع الهجرة ، كان الطرف الحقيقى الفعلى فى « الثنائية » الأمريكية مع إسرائيل كذلك . فالكونجرس هو عقل أمريكا . ولهذا فإن إسرائيل بادرت وأعلنت أن القدس هى العاصمة المقدسة لها ؟!

كل هذه الأطماع حدثت ، وحدث غيرها حين نكست الدول العربية والإسلامية رايات الجهاد ، ولجأت إلى « الديبلوماسيات » الكسيحة .

لذلك فإن على الصحوة أن تعبئ مشاعر الشعوب بالاستعداد للجهاد ، لا عدواناً على أحد ، وإنما لاستخلاص الحقوق ورد ما يراد بنا من عدوان . وتعبئة مشاعر الشعوب للجهاد لا بد أن تضع فى اعتبارها مواجهة الأسباب التى أدت إلى تنكيس رايات الجهاد ، وهى محصورة فى أمرين :

أولهما : كثرة العدو .

والآخر : تطور معداته الحربية .

هذا الاعتقاد حجب الفهم الصحيح أمام المسلمين . والقرآن الحكيم يقرر فى أكثر من موضع أن الانتصار ليس سببه الوحيد كثرة الجنود ، وفعالية السلاح . بل النصر لا يكون إلا من عند الله ، ولكن الله لا يهب النصر إلا لمن ينصر الله على نفسه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ (١) ، ﴿ وكَانَ حَقّاً عَلَينَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) فمتى نصرنا الله على أنفسنا ، وقوّينا الإيمان به كان نصره حليفنا ولن يغلبنا غالب :

---

(١) الحج : ٤٠ (٢) الروم : ٤٧

﴿ إن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ﴾ (١) ؟!

ونصر اللّه يكون باتباع كتابه وسُنّة رسوله فى كل الشئون ، وتحليل ما حلّل وتحريم ما حرّم ، وإلغاء القوانين الوضعية المخالفة لشريعة اللّه ، وأن نتقى اللّه ما استطعنا . فإذا بلغنا هذه المنزلة فلنكن واثقين من نصر اللّه وتأييده فلا ترهبنا قوة العدو ولا كثرة جنوده وتطور معدّاته :

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ (٢) .

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ العَيْنِ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ ﴾ (٣) .

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴾ (٤) .

فما علينا - بعد أن ننصر اللّه على أنفسنا - إلا أن نُعِد ما فى استطاعتنا من قوة . ثم نثق فى نصر اللّه :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ .. ﴾ (٥) .

* *

● شواهد من التاريخ :

لم يكن ما قدمناه رؤى نظرية لا حظ لها من التطبيق : فتاريخ الإسلام حافل بالشواهد . من ذلك انتصار المسلمين فى غزوة بدر ، وكانوا أقل عدداً من عدوهم وأضعف عُدّة :

---

(١) آل عمران : ١٦٠ (٢) آل عمران : ١٢٦ (٣) آل عمران : ١٣
(٤) البقرة : ٢٤٩ (٥) الأنفال : ٦٠

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ... ﴾ (١) .

وحروب المسلمين ضد الفُرس والروم ، وهى كثيرة ، لم يتحقق لهم فيها النصر بكثرة عدد ولا قوة سلاح . وإنما انتصروا بتأييد اللّه لهم لأنهم استحقوا نصر اللّه . ومن العبر الخالدة أن المسلمين لما كان عددهم كثيراً فى غزوة حنين ، وتباهوا فقالوا : « لن نُغْلَب اليوم من قِلّة » عاتبهم اللّه عتاباً شديداً وأرشدهم - عملياً وقولياً - إلى الخطأ الذى وقعوا فيه :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيتُمْ مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

* *

● مضار ترك الجهاد :

من العوامل المساعدة على تعبئة الشعوب للجهاد ، بيان المضار التى نجمت عن تركه . فهذه الحالة التى يعيش فيها المسلمون الآن من الضياع والمهانة ، ليس لها من سبب قوى سوى تركهم لما أنزل اللّه ، وإعراضهم عن جهاد عدوهم فى حالات يجب فيها الجهاد . وقد توعّد اللّه المسلمين على تركهم للجهاد وإيثارهم السلامة عليه فقال :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران : ١٢٣ (٢) التوبة : ٢٥ - ٢٦ (٣) التوبة : ٢٤

﴿ إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

ورحم اللّه الصدِّيق أبا بكر رضى اللّه تعالى عنه . فقد كان مما قال فى أول خطاب له وجَّهه للأمة حين بايعه المسلمون خليفة لرسول اللّه ﷺ ، والياً لأمورهم ، كان مما قال رضى اللّه عنه : « ولا ترك قوم الجهاد إلاَّ ذُلُّوا ... » إن الأخطار التى منيت بها الأمة الآن يمكن تلخيصها فى أمرين :

* انحراف وفساد من الداخل ، وعلاجه يكون عن طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتربية النشء على مبادئ الإسلام الحنيف . والعمل الجاد على الإنتاج الاقتصادى والحربى .

* ثم اعتداءات على حقوقها ومقدساتها من الخارج ، وعلاجه لن يكون إلا عن طريق الجهاد إذا لم تفد المساعى السلمية ، وإذا أحسنا صلتنا باللّه فلن تخيفنا الصواريخ ولا الرءوس النووية العابرة للقارات ، ولا هدير القنابل ولا حرب العقول الألكترونية والضغط على الأزرار . إن لهذا الكون رباً قديراً على كل شئ . ولنذكر دائماً قوله الكريم : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ (٢) .

مكة المكرمة : فجر يوم السبت الخامس من شهر رمضان المعظم . ١٤١ هـ .

الموافق (٣١ مارس . ١٩٩ م) .

عبد العظيم إبراهيم المطعنى

* * *

---

(١) التوبة : ٣٩ (٢) آل عمران : . ١٦

أهم المراجع

١ - الأستاذ رشيد رضا : تفسير المنار ، تاريخ الأستاذ الإمام ، مجلة المنار.

٢ - الدكتور طه حسين : فى الشعر الجاهلى ، مستقبل الثقافة فى مصر .

٣ - الدكتور محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، حصوننا مهددة من داخلها .

٤ - الأستاذ محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ، واقعنا المعاصر .

٥ - قاسم أمين : تحرير المرأة ، المرأة الجديدة .

٦ - ول ديورانت : قصة الحضارة ، قصة الفلسفة .

٧ - رفاعة الطهطاوى : الإبريز فى تلخيص باريز ، المرشد الأمين .

٨ - الشيخ على عبد الرازق : الإسلام وأصول الحكم .

٩ - مصطفى صادق الرافعى : تحت راية القرآن .

١٠ - الدكتور محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .

١١ - الإمام محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر الأسبق) : نقض كتاب فى الشعر الجاهلى .

١٢ - چورج سارتون : رحلة العلم .

١٣ - الشيخ عبد الرحمن الميدانى : أجنحة المكر الثلاثة .

١٤ - الدكتور ضياء الدين الريس : الإسلام والخلافة فى العصر الحديث .

١٥ - كويلز كوبلاند : لعبة الأمم .

١٦ - جب وآخرون : إلى أين يتجه الإسلام ؟

١٧ - الدكتورة نجلاء عز الدين : العالَم العربى .

١٨ - الدكتور عمر عبد العزيز عمر : تاريخ العرب الحديث والمعاصر .

١٩ - محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق .

٢٠ - صموئيل زويمر وآخرون : الغارة على العالَم الإسلامى .

٢١ - إدوارد بروى : تاريخ الحضارات العام .

٢٢ - أحمد الملا : أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية .

٢٣ - باول شمتز : الإسلام قوة الغد العالَمية .

٢٤ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ .

٢٥ - عبد الله التل : جذور البلاء .

٢٦ - أنور الجندى : عقبات فى طريق الدعوة .

٢٧ - الندوى : الإسلاميات .

٢٨ - المودودى : الإسلام والحضارة الغربية .

٢٩ - على عبد الواحد وافى : الأسفار المقدسة .

٣٠ - سلامة موسى : اليوم والغد .

٣١ - د . رءوف شلبى : الأديان القديمة فى الشرق .

٣٢ - مؤسسة فرانكلين : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة : وقائع مؤتمر عالَمى .

٣٣ - عايض القرنى : الحداثة فى ميزان الإسلام .

* * *

obeikandl.com